

مضمورات الخطاب الساخر في رواية "المتشائل" لإميل حبيبي*

The implicit elements of satirical discourse in Emile Habibi's novel "The Pessoptimist" as a model

د/ مسالي ليندة¹

جامعة عبد الرحمن ميرة-بجاية-الجزائر مخبر التأويل وتحليل الخطاب

lynda.messali@univ-bejaia.dz

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مضمورات الخطاب الساخر في رواية المتشائل لإميل حبيبي من خلال تحليل آليات السخرية بوصفها استراتيجية سردية ودلالية تخفي بين ظاهرها الهزلي خطابا نقديا سياسيا واجتماعيا، وتنطلق الدراسة من مقارنة تحليلية تستند إلى مفاهيم الخطاب، والتضمنين والمفارقة للكشف عن الكيفية التي يوظف بها الروائي السخرية كقناع فني لتمرير خطاب الرفض والمقاومة في ظل الرقابة والقمع. وتبين الدراسة أن السخرية في الرواية لا تؤدي وظيفة جمالية أو ترفيهية فحسب، بل تتحول إلى أداة مقاومة ثقافية تعري واقع الاحتلال الإسرائيلي وتفضح تناقضاته، وتكشف الآثار النفسية والاجتماعية التي يعيشها الفلسطيني داخل وطنه المغتصب. كما تبرز شخصية سعيد أبي النحس المتشائل نموذجا للذات الفلسطينية الممزقة بين التكيف والرفض، حيث يتداخل الضحك بالبكاء، والتفاؤل بالتشاؤم في خطاب ساخر يحمل أبعادا إنسانية ووطنية عميقة، وتخلص الدراسة إلى أن الخطاب الساخر عند إميل حبيبي يقوم على قراءة مزدوجة ظاهرها التهم وباطنها الإدانة، مما يجعل من السخرية آلية فاعلة لإنتاج المعنى المضمور. الكلمات المفتاحية: الخطاب الساخر، المضمور الدلالي، الرواية الفلسطينية، المقاومة الثقافية، المفارقة

Abstract:

This study aims to explore the implicit meanings of satirical discourse in The Pessoptimist by Emile Habibi, analyzing satire as a narrative and semantic strategy that conceals, beneath its humorous surface, a profound political and social critique. The research adopts an analytical approach grounded in discourse analysis, implicature, irony, and pragmatics in order to examine how satire functions as a literary mask through which rejection and resistance are expressed under conditions of censorship and oppression.

The study demonstrates that satire in the novel transcends mere entertainment or aesthetic pleasure, becoming a form of cultural resistance that exposes the realities of Israeli

*

تاريخ النشر: 2026/05/15	تاريخ قبول البحث: 2026/04 /06	تاريخ استلام البحث: 2026/01 /31
-------------------------	-------------------------------	---------------------------------

¹ Corresponding author : ORCID ID : <https://orcid.org/0009-0006-4320-040X>

occupation, reveals its contradictions, and reflects the psychological and social suffering of Palestinians living under occupation. The character of Saeed, the "pessoptimist," embodies a fragmented Palestinian self-caught between adaptation and resistance, where laughter intersects with sorrow and optimism merges with pessimism.

The study concludes that Habibi's satirical discourse operates on two levels: an explicit humorous layer and an implicit critical one. In this way, satire becomes a powerful tool for generating hidden meanings and an effective strategy for transcending direct and overt political narration in contemporary Palestinian literature.

Keywords: Satirical Discourse, Implicit Meaning, Satire, Palestinian Novel, The Pessoptimist, Cultural Resistance, Irony, Implicature.

- مقدمة:

تعدد الأساليب التي تستأثر باهتمام المبدعين من أجل التعبير عن أفكارهم وعواطفهم، وقد ظهر الخطاب الساخر منذ القديم كأداة فعالة في نقد الظواهر السلبية التي لا تتناسب مع قيم المجتمع ومبادئه، وهناك من {يعتبره سلاح ذاتي يستخدمه الفرد للدفاع عن جبهته الداخلية ضد الخواء والجنون المطبق، إذ السخرية رغم هذا الامتلاء الظاهر بالمرح والضحك والبشاشة إلا أنها تخفي خلفها أنهارا من الدموع} ¹. ولكونه من الأساليب القديمة الفنية يتوهم للبعض أنه تم تجاوزه لأنه لصيق بفنون سردية كانت شائعة في الساحة العربية قديما مثل المقامات أو بعض الأغراض الشعرية التي ترتبط بالهجاء واستحضاره غالبا يكون له صله بموضوعات اجتماعية أو بطبقة حاكمة ومثقفة كأن يتم السخرية من الحكام والفقهاء والشعراء. وقد عرفت السخرية في الأدب العربي منذ القديم كما ذكرنا وقبل أن تنتقل إلى الأدب كانت أسلوب حياة خاصة وأن العرب عرفوا بالبلاغة والفصاحة وموجز القول، لذا {فقد كان للخطاب الساخر دور في إزاحة كم كبير مما في النفس، وهو في الوقت ذاته ترويح وتسلية} ²، وإنما مع تطور الحياة واختلاط العرب بباقي الأجناس البشرية وتوسع غرض الهجاء خاصة في العصرين الأموي والعباسي، وظهرت بشكل لافت في العصر الحديث لدى كبار الشعراء كأحمد مطر الذي اتجه إلى السخرية اللاذعة كما توسعت ميادين استخدامها لتطال المسرح والصحافة والسينما العربية، ولم تخل الإذاعة العربية من أعمال السخرية الأدبية التي تعالج قضايا المجتمع.

وبرع الكثير من الكتاب في هذا المجال أمثال الماغوط، ومحمود السعدني وأحمد رجب وأحمد بهجت وأحمد فؤاد نجم ونخري قعوار وزكريا تامر وجلال عامر وعلي السوداني وبدر الحمداني ومصطفى شبيب وغيرهم. والكتب الموجودة لا تزال تشهد على غزارة المنتج البحثي في هذا الموضوع رغم قلة الدراسات النقدية التي تشير إلى أهميته، وبعض العقبات التي تصادف الباحث هنا أمام الغموض

الذي يلف المصطلح والمنهج، حيث نصطدم باهتمام كبار النقاد مؤخرا بسبب كونه أداة فعال تنفس عن مشاعر وأفكار الكاتب/المجتمع وتمكنت من اختراق المناطق المعتمدة بأسلوب لغوي يضم الكثير من المعاني والأنساق، لذا فهو يتوسد بالبلاغة واللغة الشاعرة وأيضا بالمجاز الذي يساعد الكاتب على تقديم معانيه بكل رمزية وإيجاء.

ربما يمكن أن نقف عند بعض الكتاب مثل صلاح فضل في كتابه بلاغة الخطاب وعلم النص، الذي يتحدث فيه عن آليات التضمن والتورية وكيف تتحول السخرية إلى وسيلة لتمرير خطاب مضمر في ظل الرقابة، ولدينا كتاب مقالات عن السخرية في الرواية العربية الذي يعود للكاتب محمد برادة، الذي أشاد بدوره بأهمية السخرية كأسلوب لتوليد معنى مضمر يقف خلف المعنى السطحي الظاهر، أما غالب هلسا في قراءاته النقدية لأدب المقاومة فقد أشار إلى أن توظيف السخرية في النصوص يمكن أن يكون وسيلة لإخفاء خطاب الرفض تحت خطاب ظاهري يوحي بالقبول، وقد حدثنا عبد الله إبراهيم في كتابه السردية العربية الحديثة أن السخرية تنتمي إلى آليات المضمر السردى لأنه يوجه القارئ إلى قراءة مزدوجة للنصوص.

وعموما هناك من ركز على الجانب اللفظي للسخرية من خلال منظورهم البلاغي لها ودورها في السياق الذي ترد فيه، بينما ركز البعض الآخر على ما وراء النص معتمدين في ذلك على عوامل عدة منها الجانب الانفعالي للساهر والمسخور منه، وهذا أيضا يتفرغ ويتشعب باعتبار السخرية طريقة من طرق التعبير من جهة، وأسلوبا نقديا من جهة أخرى يسعى إلى إصلاح الفرد والمجتمع.³

1- الخطاب الساهر ومضمراته:

أ- وقفة على المصطلح: ما نلاحظه حين نتحدث عن الخطاب الساهر أننا نتعمد استخدام مصطلح الخطاب التي ورد ذكرها ثلاث مرات في القرآن منها قوله: {آتيناه الحكمة وفصل الخطاب}⁴. وهو إذا ما تم فحص معانيه في معاجم اللغة فإنه يحوم حول الاستعانة بالحجة والبيان للإقناع، وإذا ذهبنا إلى المعنى الاصطلاحي فإننا بدورنا نقف على مجموعة من التعريفات منها ما ورد عن سعيد يقطين بأنه {مظهر نحوي يتم بواسطته إرسال القصة وأن النص مظهر دلالي، يتم من خلاله إنتاج المعنى من لدن المتلقي}⁵. بالتالي يمكن القول إنه {وحدة تواصلية ابلاغية ناتجة عن مخاطب معين إلى مخاطب معين في سياق معين يدرس ضمن ما يسمى بلسانيات الخطاب}⁶.

وردت السخرية في القرآن الكريم مرات كثيرة تصل إلى أربعاً وثلاثين مرة، مقترنة مرات بالتذليل ومرات بالضحك كما ورد في قصة نوح عليه السلام، يقول الله تعالى: {ويصنع الفلك، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه، قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون}⁷. ومرات بالاستهزاء كما في قوله: {وقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون}⁸، لذا مباشرة

يتبادر إلى ذهننا الضحك والتهكم بطريقة استفزازية للشخص المتلقي للمعنى، وقد حضر الله نوعين منهما يقتزن الأول بالسخرية التي تقوم على الاستعلاء والشماتة بالآخرين، وهذه المعاني نجد لها صدى في معاجم اللغة وقواميسها حيث جمعها نجيب اسكندر في قوله: {سخر من هزأ، هزأ استهزأ، استخف به تهكم على ازدري أذل سخرية}⁹. لذا قد تحمل الكلمة أكثر من قصد يمرره المؤلف ضمناً، ووسيلته في ذلك التلاعب بالكلمات كي يخلق الالتباس أمام المتلقي، ويبعد اللبس عن نفسه.

نفهم مما سبق أن السخرية تحوم حول معاني الهزء والتهكم والتندر والذع والهزل والمزاح والفكاهة والهجاء والضحك، وقد تصل إلى مستوى آخر وهو النيل من الآخرين لتحقيق أهداف متعددة منها الإساءة والتشفي وإظهار التفوق والتخلص من ظروف قاهرة والاستخفاف والاستهانة وعدم الاكتراث الخ¹⁰. تعتمد السخرية إذن على تقنية الخلق الأدبي الذي يعمل على إظهار النقائص البشرية الخلقية والأخلاقية ومختلف العيوب الفردية والاجتماعية، كما تعد {طريقة في التندر أو الهجاء وربما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا}¹¹. لذا فهي جزء من الخصوصيات الخطابية التي تشترك فيها كل شعوب العالم على اختلافها لغاتها وثقافتها، ولعل شخصية بجا هي شخصية معروفة لدى معظم شعوب الغرب الآسيوي حتى العرب، مما يعمق جذور السخرية في التراث الإنساني، حتى يمكن القول إنه {لم تسلم منه جماعة أو فئة من أن تكون هدفاً لفكاهة أو حكاية طريفة أو نقد ساخر يتناول شخصياتها ويقدمها للناس في إطار مقبول}¹².

ومن الأدباء الذين استخدموا السخرية في المجتمع العربي الجاحظ الذي فتح باباً للفكاهة في كتبه، ورفعها إلى مستوى أدبي جعلها موضع اهتمام من باقي الأدباء، حتى إنه تهكم من الحياة والأحياء وصاغ تهكمه على أساس من العلم الراخ والفلسفة العميقة والفن الباهر، وأيضاً بديع الزمان الهمداني الذي تمكن من محاكاة عصره بسخرية بالغة الدهشة، ويشهد له بالذكاء الحاد، وقرنت سخريته بالعقل ولذة السمع ولذة البصر، كما يشهد لأبي العلاء المعري تهكمه من الحياة ومن المجتمع الذي لم يقدره حق قدره، ومن الزنادقة ومن الكفرة وعلماء الكلام ومن الأدب الأندلسي الذي ولع بالمبالغة والهمداني الذي تمكن في مقاماته من السخرية من حياة الناس ومن بعض الظواهر الاجتماعية مستخدماً لذة العقل والسمع¹³.

وإذا مررنا إلى الدراسات العربية، فإن استخدام المصطلح يطالعنا في العديد من المؤلفات منها ما يخص الشعر كدراسة سعيد غراب في دراسته السخرية في الشعر المصري في القرن العشرين، وعبد الرحمن الجبوري الذي اكتفى بدراسة السخرية في شعر البردوني وفاطمة العفيف التي تناولت السخرية في الشعر العربي المعاصر وغيرها. وظهرت السخرية في الدراسات الغربية* أيضاً، إذ لم تقتصر على شعب دون آخر وهنا يؤكد أحد الباحثين أن أول من أرسى قواعد هذا الفن هو لوسيان ومن بعده

طوره هوراس وبييريسيون وجوقينال التي ظهرت في قصائدهم رغم التزامها بالبعد الديني الموجود آنذاك، ثم تطور على يد عمالقة الفن مثل مولير ورايبله وصامويل بعدما تعدى الشعر إلى السرد والرواية وسجلت حضوراً قوياً في الرسم الكاريكاتوري والموسيقى والرسم¹⁴.

وسبق أن قرنت السخرية بالضحك، فإذا كان الضحك حسب رايبله هو الخاصية المميزة للإنسان فإن الضحك عد عند برجسون نوع من أنواع العقاب الاجتماعي {فهو مهما بدا صريحاً بالافتراض، فإنه يخفي فكرة خلفية تفاهية، وأكاد أقول تواطؤية مع الضاحكين الآخرين الحقيقيين أو الخياليين}¹⁵. لأن المغذي الأساسي للضحك في نظره هو العقل وليست العاطفة، وهو بهذا يخالف ما كدوجال الذي يربط بين الضحك من جهة والتعاطف والمشاركة الوجدانية، وهو بهذا قريب من تنظير نيتشه للضحك يرى أن الإنسان أكثر الكائنات تعاسة في هذا العالم وقد ابتكر الضحك للتنفيس. يقول ماكدونال: إن {الضحك ليس تعبيراً عن السرور أبداً، بل هو مولد للسرور، وإنا نضحك لأننا تعساء والضحك يجعلنا نشعر بأننا في حالة أفضل}¹⁶.

ويؤكد الباحثون الذين تناولوا موضوع السخرية إنها أداة نقدية نتطلع إلى الإصلاح والتقويم والتنفيس بالتالي، فهي تحتاج قدرة في التعبير ووعي بالمغزى المراد إيصاله أيضاً، وهذا تحديداً ما كان يعنيه الكاتب الإيرلندي أوسكار وايلد {بأنها الشكل الأدنى من الطرافة ولكنها الشكل الأعلى من الذكاء}¹⁷. وقد تمتد لأن تصبح أسلوب يوحى بالأفضلية والنظرة الدونية للآخر، ولعل بيار سكونشار في كتابه المعروف إنشائية السخرية تمكن من التنظير للسخرية وتجديد قراءتها عن طريق ربطها بالبلاغة وبأوضاع الحياة اليومية، بل إنه وسع من مجالات دراستها لتشمل باقي العلوم المعرفية الأخرى الخاصة بالتاريخ والفلسفة والتحليل النفسي، حتى إن علي البوجديدي عد الكتاب أفضل مدخل لدراسة السخرية وبيان قدرتها على دراسة النص الأدبي القديم والحديث ولكنه يطرح على المترجم صعوبات في نقل المصطلح وتبليته في النقد العربي الذي يعنى بالخطاب السّاحر¹⁸، لذا لا ينبغي مطلقاً التغاضي عن هذه المعاني والتأويلات حين نقرب من النص الذي هو موضوع دراستنا.

وقد استخدم مولير ورايبله وفولتير وبرناردشو وشكسبير السخرية في نصوصهم الشعرية والمسرحية والفلسفية، فسخرّوا من المجتمع الفرنسي، ومن رجال الدين والفلاسفة، والمتصوفة والعلماء ومن الأفراد لم يسلم منهم أحد، ولعل أكبر شخصية مشهورة في الرواية الغربية وذاع صيتها في العالم كله عالم رواية دون كيشوت لدي سرفانتس، التي نشرت 1605، وربما هدف الرواية الساخرة هنا يمكن أن يحوم حول الإنسان وتعتقد بواعثه الأبولوجية والاجتماعية.

2- الرواية الفلسطينية:

انخرطت الرواية الفلسطينية هي الأخرى في النزاع الفلسطيني الإسرائيلي منذ ظهورها، حيث ابتعدت عن كونها مجرد أداة للتسلية، ودأبت في التعبير عن المعاناة اليومية التي يعيشها الفرد الفلسطيني وتوثيق تاريخه ونضاله المستمر من أجل استعادة حريته وكرامته، لقد تمكنت من تحقيق هويتها منذ نكبة 1948 التي شكلت خيمة سوداء حول الحياة الفلسطينية التي وجدت نفسها في معادلة وضعتها بريطانيا وهي من لا يملك يعد من لا حق له، والتزم الأدب بشكل عام بالتعبير عن هذه المأساة التي سرعان ما تحولت إلى مأساة العرب جميعا من الخليج إلى المحيط الأطلسي، فقد كان الأدب الفلسطيني أدب مقاومة مثله مثل {المقاومة المسلحة، يشكل حلقة جديدة في سلسلة تاريخية لم تنقطع عمليا خلال نصف القرن الماضي من حياة الشعب الفلسطيني، لكن ما يميزه هو ظروفه القاسية البالغة الشراسة التي تحداها وعاشها وكانت الأتون الذي خبر فيه إنتاجه الفني يوما بعد يوم¹⁹. ولما لا نقول هي قضية إنسانية تمس البشرية جمعاء، لأنه مآسي التهجير واللجوء تطرح يوميا على المجتمع الدولي والذاكرة الفلسطينية التي تصارع البقاء والحقائق تشوه اليوم أمام ما تبذله الإدارة الصهيونية من سبل لتزييف الحقائق واستعطاف المجتمع الدولي والاستيلاء على الأراضي المقدسة.

إن ما تطرحه قضية فلسطين من رغبة في الحرية والنضال من أجل استرجاع الأرض ومقاومة الاحتلال والاهتمام بكرامة الإنسان حيثما حل هي نفس القضايا التي يناضل من أجلها العديد من الكُتاب العالميون والعرب، ذلك أن الحرية التي سلبت من أي شعب هي تهديد للحرية في كل مكان، إن قضية فلسطين ليس قضية شعب واحد بل قضية كل إنسان حر في هذا العالم، وقد ظهرت منذ وقت مبكر حولها الكثير من أعمال تستحق الاهتمام والإشادة، وهي تعالج قضايا اللجوء وشتات الهوية والواقع المرير الذي يتخبط فيه الفلسطيني والذي يزداد تعقيدا مع الزمن، وكان الواقع الفلسطيني موضوعا خصبا للرواية حيث تجسدت كل المعاناة والقهر بسبب محاولات اقتلعه من أرضه وتشريدته وطمس هويته، كانت الأقلام واضحة جريئة ويكفي أن نذكر محمود درويش شاعر فلسطين وصوتها العالي، الذي ظل يقاوم عبر دواوينه الشعرية مثل أوراق الزيتون، لماذا تركت الحصان وحيدا وغيرها وفدوى طوقان وسميح القاسم، ونجد في السرد غسان كنفاني الذي يعد من أبرز كُتاب الرواية والقصة وله أعمال مثل: رجال في الشمس وعائد إلى حيفا، لقد تميز بأسلوبه الرمزي، وجبرا إبراهيم جبرا ومن روايته البحث عن وليد مسعود، والسفينة وإن كان أسلوبه يمزج بين الهم الفلسطيني والبعد الإنساني.

ونضيف سحر خليفة وهي كاتبة متألفة تمكنت من التأسيس للرواية النسوية الفلسطينية بأعمالها لم نعد جواري لكم وعباد الشمس، والكاتب الذي حصد مؤخرا على جائزة كيتارا باسم خنداجي

الذي لمح اسمه داخل غياهب السجن الإسرائيلي بروايته قناع بلون السماء التي صدرت في جزأين، لقد واجه المثقف العربي في فلسطين المحتلة هذا التحدي بصورة أكثر اتساعاً وقسوة، { إذ إنه كان ولا يزال يمثل حضوراً يومياً مسلحاً بوسائل القمع والإغراء في وقت واحد، لقد واجه سطوة التقدم الغربي وجهاً لوجه وبريق النمط الأوربي من الفكر والحياة ليس على صفحات مجلة أو شاشة سينما أو سطور كتاب ولكن في تفاصيل الحياة اليومية التي كان يخوض غمارها ساعة وسطوة²⁰.

لم تكن الرواية الفلسطينية يوماً مجرد جنس أدبي محلي، بل هي قصة أدبية وإنسانية اعتنت بها الأقلام جميعاً عربية وغربية وإن اختلفت الأسباب والأهداف لكنها تمكنت من فك اهتمام أغلب وأشهر الكتاب والنقاد، بسبب طبيعة الاحتلال وعمقه وصلته بالصراع العربي الإسرائيلي: أي له أبعاد وقومية وإنسانية أيضاً، بل إن هذه القضية كانت ولا تزال مصدر إلهام الكثير من المبدعين والفنانين والمفكرين الذين تمكنوا من كتابة أعمال عظيمة إنسانية ووطنية، والأدب الفلسطيني كما يقول غالي شكري في كتابه أدب المقاومة ليس مجرد تسجيل للنكبة بل هو فعل مقاوم يحول الكلمة إلى سلاح، والمقاومة التي يقصدها { هي ليست دفاعاً عن مذلق سماوي كالدين كما أنها ليست دفاعاً عن مذلق أرضي كالعرق، وإنما المقاومة حركة نسبية إن جاز التعبير عن ارتباطها بالأرض والإنسان والحرية وكلها عناصر نسبية تتبادل السلب والإيجاب والمد والجزر²¹.

والحديث عن المقاومة في الأدب الفلسطيني وحتى الحياة اليومية لا يحتاج إلى تأكيد، وهي ليست حادثاً طارئاً لأن مثل هذه النزعة كانت لصيقة بطبيعة الإنسان الفلسطيني الذي رفض منذ وقت مبكر وجود الاحتلال وكل أشكال تواجده الظالم، وغالباً ما يتخذ أدب { شكله الرائد في العمل السياسي والعلم الثقافي ويشكل هذا العاملان المترادفان اللذان يكمل أحدهما الآخر الأرض الخصبة التي تستولد المقاومة المسلحة وتحتضنها وتضمن استمرار مسيرتها وتحيطها بالضمانات²²، لقد عنيت بها الكثير من الدراسات والباحثين مثل رجاء سلامة في كتابها الرواية العربية والذاكرة الفلسطينية التي حدثتنا عن كيف تحولت الرواية الفلسطينية إلى أداة لحفظ الذاكرة الجماعية، ونفري صالح الذي تحدث عن الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني، ودوره في التأسيس للرواية الفلسطينية الحديثة، وخالد عزب الذي حام حول الروائي إميل حبيبي في روايته المتشائل وكيف اخترع فناً جديداً حول الضحك إلى مأساة لا تموت بها.

ظلت الرواية الفلسطينية في الجزائر موضوعاً لاهتمام الدراسات الأكاديمية والجامعية وموضوعاً يتصدر العديد من الملتقيات والندوات والورشات، واستأثرت باهتمام كبار النقاد مثل عبد الملك مرتاض في كتابه الرواية العربية في الجزائر، حيث حاول الجمع بينهما والكشف عن التفاعل الذي أحدثته القضية الفلسطينية في الساحة الإبداعية الجزائرية، ويمكن أن نتوقف عند الروائي الجزائري

واسيني الأعرج الذي صرح في روايته الأمير إن الكتابة عن فلسطين ليست ترفاً بل استعادة لوطن في الذاكرة والخيال قال في تصريح له: {أنا شخص مناصر للقضية الفلسطينية.... وأعدها جزء من كيان} ²³. وقد ظهرت مواقفه في أعماله الروائية واهتماماته الفكرية وتصريحاته، وهو في رواياته التي ظل دوماً يسعى الرواية إلى احتضان التاريخ، كونه مادة ليس مستقلة.

ولعل أكبر المناضلين عن القضية الفلسطينية في بعدها الإنساني هو المفكر إدوارد السعيد الذي سعى في كتبه ومقولاته ومنشوراته إلى أن يغير منظومة الأفكار التي نشرتها الإمبريالية والتي أقرت مشروعية التمرکز والهيمنة محولاً دحض كل مفاهيم الحداثة والعولمة، إن إدوارد كان يرى أن القضية الفلسطينية ليست مأساة محلية بل هي مأساة إنسانية تكشف حدود العدالة في هذا العالم.

إن جل المفكرين والمبدعين الذين أنجبتهم فلسطين كانوا يعرفون أن القضية الفلسطينية هي قضيتهم جميعاً، لأن الإنسان قضية كما يقول غسان كنفاني وحين يفقد الإنسان قضيته يصبح أصغر من نفسه، كما أن {الفن والثقافة سلاحان إذا ما سارا على النهج الهادف رفعا من مفاهيم أمة بكاملها} ²⁴، إنها تذكرنا بروايات تحدث عن فلسطين وإن كان ذلك بطريقة غير مباشرة مثلما فعلت أحلام في ثلاثيتها عبر شخصية زياد خليلي، فهي تعي أن القضية هي قضية حرية وظلم واحتلال، وبالتالي هي قضية الإنسان في كل مكان وزمان، لقد صرحت بأنه لا يمكن أن نكتب عن الحرية في الجزائر ونصمت عن فلسطين، فالقضيتان توأمان في التاريخ والوجدان، بل إنها ترى أن فلسطين ليست وطناً فقط لكل العرب بل هي ذاكرتهم وامتحان لضمائرهم، وصرحت في إحدى حواراتها إنها تأسف من {العالم الذي لم يعد قادراً على حماية فلسطين لا مستشفى ولا مدرسة تقول: إننا لم نولد أشرار ولا قتل فغاية الإنسان الأولى في هذه الدنيا لأمان وغاية الإنسانية الأولى لا بد أن تكون السلام} ²⁵.

4- السخرية في الرواية الفلسطينية:

تعتبر السخرية في الأدب الفلسطيني ظاهرة تستحق الدراسة لأنها تفتح الخطاب على مضمير يتخفى خلف المفارقة كاستراتيجية بلاغية تتيح للكاتب أن يمارس فعل المقاومة من داخل اللغة، بل هي مكر سردي حسب نفري صالح لأنه يفصح الاحتلال دون الوقوع في التصريح المباشر، لذا ظلت السخرية ولا تزال من أبرز الآليات البلاغية التي يعتمد عليها بعض الكتاب لمواجهة بعض الحقائق والموضوعات الشائكة التي تثير حولها الكثير من الرقابة والجدل، وقد سبق وظهرت عند الشاعر محمود درويش، لتتألق عند الروائي إميل حبيبي، لقد تحولت إلى شكل من أشكال المقاومة الثقافية تحاكي سلطة وكأنها تهادنها لكنها تؤسس لخطاب الرفض والمنع كونه يفصح تناقضاتها وآثارها النفسية على الفرد الفلسطيني.

بالتالي فظهور السخرية في الرواية الفلسطينية أمر منطقي وبديهي جدا إذا ما عاينا الوضع العام والذي يدور في حلقة مفرغة ومغلقة غالبا ما نثار المشكلات دون التمكن من الوصول إلى حل وهذا يدعو للقهر والسخرية، بالنظر أيضا إلى كثرة الجدل الذي يطال القضية عربيا وعالميا، والإشادة بالمقاومة دون دعم حقيقي.

أ-إميل حبيبي ورواية المتشائل:

من الكتاب الذين سنتوقف عندهم في هذا البحث إميل حبيبي²⁶، وهو يعد رائد السخرية السوداء في الأدب الفلسطيني، بحيث يعد جزءا من أسلوبه الكلاسيكي، وجزء من خصوصيته السردية التي تضمنتها أعماله الأدبية، التي أظهر فيها معرفته بالثقافة الكونية وبتاريخ الأدب، ومحاولته التأصيل للرواية العربية، حين كان يكتب هويته الوطنية وموروثه الشعبي، ومن أشهر أعماله المتشائل التي ركز فيها على تجربة الفلسطينيين داخل الأراضي الفلسطينية أثر نكبة 1948 التي قسمت فلسطين.

رواية الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل التي كتبت في بداية السبعينات، لم تكن لتجاوز الأزمة التي مرت بها فلسطين والتي لا تزال آثارها تحاصر الواقع العام بكل تفصيلاته وتأزم حياة الفلسطيني وتضعه أمام تحديات عميقة ومأساوية منذ أن دخل أراضيها المحتل الإسرائيلي، يقول الروائي: { رأيت الباقية أرضهم تمزق، وشعبهم يفرق، ودورهم تحتل، وحقوقهم تستعمر بدعوى التوراة كما رأوا معالم حضارتهم تمسخ والأسماء العربية تفسخ وما استطاعوا دفعا }²⁷.

وموضوع الرواية الأساسي هو محاولة الاحتلال التحكم في حياة الفلسطيني بكل تفاصيلها، كي يتمكن من قهره وتوجيه حياته، عن طريق الاعتقالات والملاحقات وأوامر الإقامة الجبرية وغيرها، لقد امتدت يده لتطال اللغة والعمل وحرية التنقل تمزج بين الفكاهة والمرارة، حتى تجد القارئ يتوقف على كثير من المواقف ليكشف عن تفاصيل الاحتلال وبشاعته، لكنه يشعر بالحزن المرير على ما يتم سرده. لقد تمكنت الرواية من إخضاع التاريخ والفكاهة للأبعاد السياسية والسردية، متوسلة بالخطاب الساهر الذي كان يحمل معه كل معاني الرفض والتهكم من الوضع العام العربي والفلسطيني، في بنية هزلية اختارت أن تتنقع لتسائل وتسخر من مأساة لا يمكن أن تحكى بطريقة مباشرة، يقول مثلا: { ألم تضحك من الأضحكة الإسرائيلية عن السبع الذي تسرب إلى مكاتب اللجنة التنفيذية؟، ففي اليوم الأول اقترس مجير التنظيم النقابي، فلم ينتبه زملاؤه...وفي اليوم الثاني اقترس مجير الدائرة العربية فلم يفترقه الباقون، فظل السبع يمرح مطمئنا ويفترس مريثا حتى أتى على نذل السفارة، فأمسكوه، أنا النذل يا محترم فكيف لم تنتبهوا على اختفائي }²⁸.

وفي سياق الحديث عن الرواية والكاتب يقول ياسين فاغور: { يكتب إميل عن شروط عيش الفلسطيني في الوطن المصادر، عن الإنسان المعتقل في وطنه المغترب في أرضه، وعن ذلك الفلاح

الذي ينظر إلى أرضه من وراء السياج، فإن اقرب مناه كثيرا جاءه العقاب وعن هذا العيش المسكون بمقارفة ثقيلة يصدر ضحك ملتبس، يبدو للوهلة الأولى ضحكا لا يعتريه المرض، فإن نظرت بعين تكشف ضحكا قوامه البكاء، فلسطيني مقهور يضحك حتى يشرق بالدموع ويبيكي حتى يوقظه الضحك، وفي جدل الضحك والبكاء يرفض الفلسطيني أن يستسلم إلى منطوق الضحية، فيمسح دمه الضاحك وينشر لواء المقاومة²⁹.

بطل الرواية هو سعيد أبو النحس المتشائل الذي يعتبر شخصية فلسطينية ساخرة تعكس وضع الفلسطينيين الذين بقوا في أرضهم يعيشون تحت وطأة العدو. يقول البطل متحدثا عن نفسه: {إن اسمي وهو سعيد أبو النحس المتشائل، يطابق رسمي منطقاً وعائلة المتشائل عائلة عريقة نجبية في بلادنا، يرجع نسبها إلى جارية قبرصية من حلب لم يجد تيمورلنك لرأسها مكاناً في هرم الجماجم المحزورة ... فأرسلها مع أحد قواده إلى بغداد لتغتسل فتنظر عودته، فاستغفلته وفرت مع أعرابي.....³⁰ . لقد قام سعيد بحكي حياته في رسائل كان يرسلها إلى حبيبته يوليا المرأة التي يحبها، ويظهر في الرواية كشخص انتهازي يحاول النجاة بنفسه والتكيف مع الاحتلال حتى ولو كلفه ذلك كرامته، إن السرد هنا يضعنا في بؤرة التوتر والقلق والصراع النفسي والعقلي الذي يعتمل داخل عقل الفرد في محاولة التكيف أم الخنوع بين الرغبة في البقاء أو التعايش وبين القهر والضغط المستمر.

تمزج الرواية بين التهمك والمأساة، وهذا تحديدا مغزى الكاتب الذي صرح قائلاً: {أسلوبي في المتشائل هو أسلوب الهزل الجارح}³¹ . كانت السخرية هنا وسيلة للكشف عن الأخطاء التي يقع فيها الإنسان بسبب الضغوط والقهر في محاولاتهم التكيف مع وضعهم وواقعهم، ورصد بشاعة النزاع الإسرائيلي الفلسطيني وتناقضاته المستمرة، فقد كانت الرواية في صلب الصراع ولم تكن محايدة عما كان يحدث، مما يكشف العلاقة بين السخرية والمقاومة، {فالأدب الساهر ليس نوعاً أدبياً محايداً، يسعى إلى انتزاع الضحك أو التهوين من شأن الذات، إنما هو شكل أدبي يقاوم، إذ لا تكون الضحية فيه غارقة في ربعها ومستسلمة لأوامر الجلاد، بل ترد على الجلاد والأدوات القمعية بسخرية شاملة}³².

ولذا يمكن حين نواصل الاقتراب من النص، أن نفهم الموقع المركزي الذي يحتله الخطاب الساهر في أعمال حبيبي، والذي جعل تقريباً الرواية مقترنة بالسخرية وبيع بعض النقاد يخضعونه للدراسة أو المساءلة لكونها تقنية تتجاوز التصنيف المتداول حول النقد أو الضحك إلى أن تصبح من بين أهم الأساليب الفنية التي يمتاز بها الأديب في جل أعماله، فالرواية مر عليها اليوم نصف قرن، ومع ذلك بقيت نصاً متميزاً بسبب قدرة الكاتب على المزج بين الخيال الساهر والسرد السياسي لقد فتحت باباً واسعاً للأدب والرواية الفلسطينية في استخدام الخطاب الساهر والفكاهة المعتمدة كأداة مقاومة وليس انتقاد فقط أو خطاب للضحك، لذا لا تزال تعتبر من أهم الأعمال الفلسطينية التي اعترفت بها النقاد

والباحثون. إنها عمل في يمكنه ببساطة أن يجعلنا نعيش تجربة القهر والاحتلال بشكل واقعي بدلا من البكاء يمكن أن نتألم لألمه أن نبحث عن معنى للرواية في بعدها الإنساني والقومي.

في رواية الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل وظف إميل السخرية كقناع اتخذته وسيلة رفض قوية للواقع الذي أضحت عليه فلسطين بعد التقسيم، وقد استعان بشخصية سعيد أبي النحس كي يدفع القارئ إلى التوقف مليا عند خطاب هذه الشخصية بين ما يقوله وما يضمّره، ولا يكن ذلك سببا في انتقاد الشعب الفلسطيني الذي أعلن سخريته من الوضع العام:

- لا تلني، يا محترم، بل لم أصحابك....

- سأحضر رقم كل قسيمة

- من أرضنا سلبت

- وموقع قريتي وحدودها

- وبيوت أهلها التي نسفت

- وأشجاري التي اقتلعت

وكل زهرة برية سحقت³³. حتى أصبح كل مكان في الأرض مقدسا بدمائهم منذ زمن بعيد منذ اقتحم الصليبيون القدس ورأت أكوام الرؤوس والأيدي في ساحات المدينة، لقد كان السرد أداة فعالة تجاوزت البوح السردى إلى تقنية بقاء الصوت المقهور داخل فضاء محكوم بالقمع السياسي. وتراه يصرخ من مصير أخيه الذي كان حديث عهد الزواج، والذي انتهى به المطاف أن صار جسده ممزقا بسبب عاصفة هبت وألقت به في البحر فوق الصخور، ويورد مقطعا يجعل فيه والده تحمّد ربها على هذا المصير الذي أصبح فيه على غير شكل، قائلة: {مليح أن صار هكذا وما صار على غير شكل}³⁴، وكأنها تحمّد الله على مصيره الجيد في مفارقة ساهرة من نهايته التي طمست وجوده الفيزيائي، حتى زوجته التي حزنّت عليه بعد وفاته انتهى بها المطاف وهي هاربة مع رجل آخر عاقر، لقد سخر بطل رواية المتشائل من كل الشخصيات ومن الوضع الفلسطيني ومن الظروف التي عاشها بعد نكسة حزيران، وكان يعود في كل مرة الى التراث إلى ألف ليلة وليلة، وإلى الجاحظ، وإلى كل ما من شأنه أن يغذي خطابه الساهر، فكانت روايته نموذجا للنص المتناص مع غيره، مع نصوص كبار الشعراء الفلسطينيين ومع رواد النثر القديم كابن جبير وغيره، لكن الكتاب والنقاد يشهدون له بالغموض في روايته، اذ الكثير من المواقف الضاحكة والتهكم كان يلفها الغموض، وبعضها {خفي ملتبس متناقض يجمع بين الوضوح والغموض وهكذا كان ضحكه يريد ان ينفجر لكنه يكتبه أو يكظمه أو يكتمه}³⁵.

ب- آليات السخرية خطايا:

كثيرا ما يعتقد أن السخرية تلتصق بالموضوع، وأن اللجوء إليها لا يحتاج سوى محاولات الكشف والتعبير عن ما يريده الكاتب، لكن بالنظر إلى السرد فإن تقنية السخرية تعتبر آلية تتخفى وراء الحوار والمواقف التي ترد عن الشخصيات، مما يعني أن الخطاب الساهر يتطلب قارئاً متمكناً، بل ذاكرة جمعية ومعرفة كي يمكنه أن يؤول الدلالات والمعاني، ويتطلب المضمير النسقي الذي تواريه المعاني، فالنص في مجمل الأحوال {هو انتماء ثقافي أو اجتماعي أو سياسي أو إيديولوجي معين}³⁶. لذا فإن استخدامها يحتاج إلى مهارة قوية ومعرفة باللغة ومضمورها وبالأنساق وجمالياتها وبالمعنى وعمق تأثيره، إن الكاتب سيكون هنا مضطراً لأن يخاطب قارئاً متمكناً لأنه يلجأ إلى ما وراء الكلمات لفهم الرسالة الحقيقية، ومن ذلك حديثه عن ارتباط الموت بالأرض، يقول: {كان والدي، حين استشهد يستشف الأرض تحته، فلم يكشف الكمين الذي كمن له وأودى بحياته ووالده من قبله، شج رأسه بحجر الطاحون لأنه كان ينظر في الأرض بين قدميه، فلم يبق بعدها}³⁷. وبالتالي فإن الكاتب يعي تماماً معنى الموت من أجل الأرض والتعلق بها، أنه يؤكد تواصل عميات التضحية التي تقدمها فلسطين بين الأجيال.

فقيمة الخطاب الساهر قيمة بالغة الأثر في النص لأنها تظهر كأداة مقاومة، والمثل المشهور بيننا أن الضحك يغضب المتسلط، لذا فإن السخرية والضحك قد نثير الكثير من النقد والاستهانة بالعدو الذي لم يتوان عن كشف كل أساليبه في التشويه والتعذيب. كما أن الخطاب الساهر يعري الواقع بكل تفصيلاته، ويمنح الكاتب حرية القول من وراء ستار ويجعل النص أكثر عمقا وثراء، إن الخطاب الساهر يعتبر وسيلة فعالة في خلق أفق الانتظار ودفع القارئ أن ينتبه إلى النسق والمضمير والمسكوت عنه، والخفي أيضا في اللغة وفي بنيات النص. وهنا تجدر الإشارة أن ما يراه البعض سخرية قد يراها البعض الآخر خطاب عادي، بل إن بعض السخرية إن لم نقل جلها موجه إلى القارئ أيضا لأنه طرف في الحوار، فيكون وقع النص عليه كبيرا مما يحدث لديه نوعا من الحساسية³⁸.

ج- البعد الدلالي للمضمير الساهر:

بما أن السخرية حين ترد في النص تتحول إلى أداة تحمل معها الكثير من الدلالات والأهداف السردية والموضوعية التي تخدم البناء العام للنص ودلالته، لذا غالبا ما يربط الكاتب وظيفته التقليدية بالنقد الاجتماعي والسياسي للكثير من المظاهر التي تظهر في المجتمع أو بيئة ما يعيش فيها الكاتب أو تقربه بشكل من الأشكال، فهو أسلوب يهدف إلى الضحك المبطن بنوع من النقد الموجه هدف وضع اليد على علة ما أفسد أو توجيه نحو سبيل سوي أو تغيير حالة إجماعه أو سياسية فاسدة³⁹. كما أنه يسهم في التخفيف من وطأة القيود الاجتماعية، لأنه يساعد على التعبير عن الأفكار

المرتبطة بجوانب ترتبط من غيرها بالقيود الاجتماعية وتعلق هذه الجوانب بشكل خاص بالسلوكيات التي تنظمها المجتمعات على نحو أخلاقي وديني واجتماعي.

هنا تتحول السخرية إلى النقد أو يسميه البعض بالساتير satire، وهو {جنس أدبي يهاجم الشرور والمظالم الإنسانية باستخدام المفارقة والتورية والعبث وغيرها من الأساليب والصيغ ويمكن هدفه المثالي هو الإصلاح والتطوير}⁴⁰. هنا يمكن أن يتم بطريقة لاذعة حين يصدر من الكاتب وجهة نحو فئة تعتبر عادية في المجتمع هنا يمكن أن يبالغ ويستخدم الهجاء والقذف أيضا، لكن حين يريد الكاتب أن يوصل المعاني بطريقة غير مباشرة، فهنا مباشرة ندرك انه يعيش محاطا بالرقابة لذا قد يفهم أن خطابه موجه للطبقة الأعلى منه مكانة أو يقصد به تيار معين له السبب في تفشي الوضع العام، لذا فهو يلجأ إلى تقنيات ماكرة كما سبق أن توقفنا عندها سابقا في الرواية النسوية التي توجه السلطة البطريكية فتجدها تتوسل بتقنيات الإخفاء وراء تقنية السارد الرجل أو الشعرية أو الصمت السردية، لذا هي تقنيات لا تتصل بفئة وإنما تظهر بسبب ظروف خاصة غالبا تكون تحمل إيديولوجية عميقة وخطاب رافض لهما هو قائم.

بالإضافة إلى ما سبق وله فإن الكاتب قد يعتمد استخدام السخرية كأداة للترفيه وجذب انتباه القارئ، وهنا السخرية لا تكون خفية بل تلجأ إلى الظهور العلني كي تجعل القارئ يشارك في عمليات الفهم والتأويل، إن المضمرة هنا يتحول إلى أداة للمزاح لكن تحمل معاني عميقة تكشف المسكوت عنه، وتعتبر أداة لمواجهة الخوف والقلق. وتبقى الأداة البلاغية هنا وسيلة فعالة تسهم في تجدي الخطاب الأدبي وأدبياته لأنها توفر للكاتب تقنيات بلاغية تمكنه من المشاركة في التعبير عن قضايا حساسة بطريقة ذكية تذكرنا بما كان يقوم به المسرح في عهد مولير وبرنارد شو وبعض المقالات الصحفية التي تثير الكثير من التهم.

د- موضوعات الخطاب الساخر في الرواية:

غالبا ما يصير الباحثون أن موضوعات الخطاب الساخر هي قضايا اهتم بها الأديب وشغلت باله لأنها جزء من واقعه وحياته، وفي العموم هي خاصة بالإنسان وحياته ومشكلات تنغص مضجعه، والجدير بالذكر أن موضوعات الرواية أو السرد بشكل عام قد تغيرت في القرن العشرين بعد سلسلة من التطورات التي شهدتها البشرية في كل المجالات، خاصة بعد الحربين العالميتين، وإذا اقتربنا أكثر من الرواية العربية فإننا نكاد نلاحظ هيمنة المرحلة التي أعقبت احتلال فلسطين وآثارها في النفس والوضع العام في المجتمع العربي، وهناك الفترة المعاصرة التي عاد الاستعمار ليسود مجددا في هذه المنطقة وإن اختلف لكن أساليبه ومفاهيمه التي يزرعها لا تزال واحدة، لكن رغم ذلك فقد تمكنت الكثير من

البلدان من تحقيق استقلالها والمحافظة عليه، لذا قلت السخرية وتوجه الخطاب نحو الصراحة. ونوه هنا باختلاف البعد الساهر في النصوص باختلاف المجتمعات والبلدان.

1- الجانب الاجتماعي:

لا يزال الوضع العام الذي تعيشه الأمة العربية يلفت انتباه وخوف المثقف والأديب والفنان والكاتب وكل فئات المجتمع التي تشهد على تخبطة في متاهة البؤس والقهر والجهود الفكري والانحراف عن المبادئ والقيم الأخلاقية والدينية، وقد تطل يد الكاتب ملامح الإنسان وفكره وجوانب أخرى من حياته كضيق الحال والبخل وضعف القيم والأفكار، وقد تحدث إميل حبيبي عن تراجع الملكة العقلية للعرب وعن ضعفهم وهو أن معرفتهم التي تخلوا عنها بسبب انشغالهم بالأمور التافهة وترك العلم والتفكير لغيرهم يقول: {فقد كان العرب حين يفكرون، قال المغضوب عليه أسرع حركة حتى من دوران الأرض حول شمسها، فأصبحوا الآن يتخلون عن ملكة التفكير لغيرهم ... فقد كان العرب يعملون ثم يملون، لا كما يفعلون الآن يملون ثم يظلوا يملون} ⁴¹.

فالسخرية هنا من الاحتلال وممارساته تحمل طابع المقاومة والألم في نفس الوقت لأن البطل يدرك أيضا مرارة التكيف أو الخنوع ومرارة المقاومة والرفض، كما يقودنا للحديث عن الواقع الاجتماعي البائس مما يجعل الفكاهة السوداء هنا تعبير حقيقي عن الألم. لذا حين نقف عند رواية المتشائل، فإننا يجب أن نعي الهدف من كتابة هذا النص. كتب النص إميل حبيبي كي يفضح عبثية الواقع تحت الاحتلال بالسخرية التي يمكن لها أن تكشف المأساة، كي يقاوم العدوان عبر السرد، إن الرواية عند إميل حبيبي تحولت إلى شكل ثقافي عبرت عن الوعي الجمعي العربي والإنساني، لأنها قضية ليست محلية بل كونية.

وتظل مظاهر الانحلال الأخلاقي والسلوكي وكذا النفاق والرياء والبخل والتملق وتفشي الاختلاسات والرشوة والغش والوشاية من المظاهر التي يعني بها الفرد بسبب كونها تؤثر عليه، ويمكن أن ترى السخرية من الزواج غير المتكافئ وانحطاط القيم والظلم الاجتماعي شائع أيضا، واستعانة الأديب بهذه التقنية تمكنه من التعبير عن الأوضاع السائدة في المجتمع وعن آراء المواطنين وأفكارهم وقيمهم ... وفي بعض أقواله نقد صارخ للأمة: {هذا شأنكم هذا شأنكم حين لا تطيقون احتمال واقعكم التعس، ولا تطيقون دفع الثمن اللازم لتغييره لأنكم تعلمون أنه باهظ، تلتجئون إلى إني انظر إلى ما يفعله الناس الآخرون وما يذولونه ولا يسمحون لأحد بأن يحشرهم في ديماس من هذه الدياميس، فأغضب عليكم ماذا ينقصكم؟، هل بينكم من تنقصه حياة حتى لا يقدمها، أو ينقصه موت حتى لا يخاف على حياته} ⁴² لذا يعد أحد المرايا الصافية التي تعكس هذا المجتمع، والسلوكيات التي

يمكن أن تنتشر فيه كالرياء وانتشار الخرافات والأساطير والباطل ومثل هذه الموضوعات تختلف في النصوص حسب ميول الكاتب وانشغالاته. والسخرية التي ترتبط بالبعد الاجتماعي تراها تناول بكثرة السلبات وتلجأ إلى الهدم والفضفضة والانتقام والعدوانية وكلها كان الكاتب تحت رقابة معينة ازداد توسلا بالبلاغة التي تخفي المقاصد وتعمل على تورية المعاني، لذا تجد عنصر الفكاهة حاصر في مجمل الرؤية السائدة التي يتحدث بها.

2- الجانب السياسي:

كان الاهتمام بالجانب السياسي من أهم ميزات العرب قديما وحديثا لأن الحياة السياسية كانت لها دور كبير في ازدهار الشعر وارتباطه بالعصبية القبلية وبعدها بالفتوح والفتن، ويمكن أن نلاحظ شيوع السخرية في نصوص الكثير من الشعراء ممن كانوا ينتقدون الحاكم أو يسخرون من أعدائه، فالسخرية في الأصل استهدفت الوضع في الاخلاق والسياسة والسلوك والتفكير كما يعتبرها أثر برجر أحد أشكال المقاومة⁴³. وازداد الأمر وساعة في العصر المملوكي والعثماني بعد اقتراب الشعر من الحياة العام، وكان التركيز على الآثار السلبية في المجتمع يمكن للكاتب أن يتوجه بسخريته إلى المجتمع بأكمله كما فعل إميل حبيبي الذي سخر من المجتمع العربي بسبب صمته الجبان أو خنوعه الواضح، مما يكشف الذل الذي يعيشه، وقد نههم إلى النهوض بكرامتهم، كما سخر من الوضع العام الذي تعيشه فلسطين بعد الفساد الذي عم الأركان بسبب كسل الشعب واستسلامه للاحتلال. فالسخرية من ضعف النفوس في نفس الوقت محاولة تبرير هذه المشاعر بسبب قوة الاحتلال وجبروته، وكذا هيمنتها التي أظهرها ومساندة الغرب له، مما مكنه من التغلغل بكل حرية.

يقدم إميل حالة الفلسطينيين في ضوء تجربة مكتملة في الرواية انطلاقا من خطاب متشائل إلى صديقه، يسجل فيها كل واقعهم السياسي، ويحط من قدر الانسان فيه ليتساوى مع الحيوان، قائلا: {نزلت عن الحمار رأيتني أطول قامة من الحاكم العسكري، فاطمأنت نفسي حين وجدتني أطول قامة منه بدون قوائم الحمار فارتحت على مقعد من مقاعد المدرسة التي حولوها إلى مقر الحاكم}⁴⁴. وهنا ربما سخرته من الطول تجسد عمق التاريخ الفلسطيني في أرض القدس وصلابة صلته بالتاريخ وبالمكان. وقد يتوسل الكاتب هنا بعنصر التحريف كي يوجه إطلاق السهام النقدية للطريق غير المباشر والرمزي، كما أنها يشكل وسيلة أساسية لنقل موقف أو شخصية عن مستوى معين إلى مستوى آخر⁴⁵. فيسلط الضوء على العيوب تحت العدسة وقد يبالغ في الأمر لحد أن يقدم لنا صورا كاريكاتورية مشوهة أو حقيقية بدعمها من إسقاطات الواقع وما يملكه من ذخيرة العبارات ومهارة اللغة التي تأتي عن طريق التلاعب بالألفاظ وترادف الكلمات وغيرها.

وقد لا أبالغ حين أقول: إن السخرية هي الغطاء الأكبر حظاً في الخطاب السياسي لأنها النغمة المعتدلة التي يمكن لها المرور إلى أي فكرة وتغلغلها، فبدل أن يلجأ الكاتب إلى تقنية البذاءة التي قد تستهدف ازدراء الآخرين، فهي عملية نفس مؤقت ومحدد للمسلات الاجتماعية السائدة كما أنها تشكل أيضاً وسيلة حادة تخلق إحساساً بعدم الارتياح وإثارة الارتباك بالإضافة إلى التعبير اللفظ الذي يشكل دائماً الأساس الذي يثير الضحك ويعد الخروج على المحظورات والقيود المجتمعية تجاسراً ينطوي على التمرد على ما ينفر منه الفنان⁴⁶. لذا تجده يلجأ إلى استخدام الغفلة والبلاهة واحتقار الشيء وطرح الأسئلة الساهرة، ويمثل ذلك نوعاً من المهارة في استخدام اللغة مع أنه قد لا يخدم غرضاً معيناً بقدر ما يعكس الرغبة في العبث والمشاكسة أو التلاعب بالمعاني الذي يظهر على أنه نوع من أنواع التورية والكثافة والتعريض والقلب والمفارقة، حيث تجده يقول كلاماً ولكن لا يقصد به المتكلم معناه وإنما يقصد معنى آخر. مثلاً من بين سخرية إميل حبيبي، أنه يتحدث فيقول: {أما أن فوق بيني وبينهم حمار سائب، فنفق عوضاً عني، إن حياتي التي عشتها في إسرائيل بعد هي فضلة هذه الدابة المسكينة}⁴⁷. وتعتبر المبالغة من الوسائل التي تظهر في الخطاب الساهر، بهدف إثارة المشاعر القوية وخلق انطباع قوي حيال شيء معين ويندر أن تعني حرفياً الكلمات المستخدمة ولذلك فإنها تستخدم بشكل كبير في النقد الساهر⁴⁸. فالسارد الذي يشارك الحكي بضمير المتكلم يترصد الواقع الفلسطيني السياسي المتوتر بكل مصداقية ويكسب النص روحاً وحرارة حين يتجنب معرفة بكل الأحداث بل يقوم بالتركيز على تفاصيل يومه أي ما نسميه بالسرد الذاتي الذي يستدعي كل التوقعات، إذن وجد إميل حبيبي في السخرية ما يمكن أن يخفف عن مسحة الحزن التي تخيم على مشاعره بسبب الاحتلال، وتخفف عنه وطأة القهر ومرارته، كما تضيء عليه مسحة من المقاومة بدل الرثاء على الوضع وأحواله، لهذا تراه يتخبط بين الحزن والأمل: {خذني أنا مثلاً فإنني لا أميز التشاؤم عن التفاؤل، فأسأل نفسي من أنا؟ أمتشائم أنا أم متفائل، أقوم في الصباح من نومي، فأحمد الله على أنه لم يقبضني في المنام/ فغداً أصابني مكروه في يومي أحمدته على أن الأكره منه لم يقع، فأيهما أنا متشائم أم متفائل}⁴⁹. وهذا كي لا يزيد مسحة الحزن على الشعب الفلسطيني، كمتقف حاول إميل حبيبي أن يسمي الأشياء بمسمياتها، وأن يحكي عما عايشه الشعب الفلسطيني فكرياً وثقافياً وسياسياً، لذا هو حين يفعل لا يفعل من منطق السرد ككاتب بل كمواطن عاش الألم ويسترجع الأحداث ويسائل الذات وينقدها، وينقد الواقع المرير الذي هو بحاجة إلى الكثير من التغيير.

¹ - مجموعة من المؤلفين، القصة القصيرة الروسية الساهرة، ترجمة نزار عيون السود، دار المدى، العراق، 2016، ص 5

- ² - لينا بنت زاهر بن عبد الله الخصبية، الخطاب الشعري الساهر في الدراسات العربية الحديثة، ط1، الجمعية العمانية للكتاب والأدب، عمان 2023، ص32
- ³ - لينا بنت زاهر بن عبد الله الخصبية، الخطاب الشعري الساهر في الدراسات العربية الحديثة، الجمعية العمانية للكتاب والأدب، عمان، 2023، ص37.
- ⁴ - سورة ص، الآية 20.
- ⁵ - سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، ط2، 2001، ص35.
- ⁶ - بوقرة نعمان، الخطاب الأدبي ورهانات التأويل قراءات نصية تداولية حجاجية، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2012، ص19.
- ⁷ - هود الآية، 67
- ⁸ - سورة الأنعام، الآية 10
- ⁹ - اسكندر نجيب، معجم المعاني المترادف والمتوارد والقيض، دار الآفاق العربية، مصر، ط78، 2003، ص187.
- ¹⁰ - أنظر ياسين أحمد فاغور، السخرية في أدب إميل حبيبي، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، 1993، ص14
- ¹¹ - أنظر نزار عبد الله خليل الضمور، الاعلام الساهر، السخرية والفكاهة في النصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، عمان، دار حامد، ط1، 2012، ص16 نقلا عن عمر الايباري، برامج النقد الساهر، النشأة والتقنيات، ط1، دار العربي للنشر والتوزيع، 2023، ص16
- ¹² - ياسين أحمد فاغور، السخرية في أدب إميل حبيبي، ص30
- ¹³ - ينظر المرجع نفسه، من ص43 الى 51.
- * تناول صمويل هنتغون السخرية في كتابه فلسفة الفكاهة وميخائيل باختين وجوناثان وشاعت عند الكثير من الفنانين مثل شارلي شابلن والفلاسفة مثل نيتشه، وغيرهم مما يؤكد أهمية هذه التقنية بالنسبة للإنسان وتجاوز كونها مجرد وسيلة للترفيه الى ارتباطها بالعقل وباللغة وبالفكر والنفس البشرية وأساليب تعاملها اليومي.
- ¹⁴ - أنظر لينا بنت زاهر بن عبد الله الخصبية، الخطاب الشعري الساهر في الدراسات العربية الحديثة، ص27
- ¹⁵ - هنري برجسون، الضحك، ترجمة علي مقلد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1987، ص12.
- ¹⁶ - شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2003، ص25
- ¹⁷ - عمر الايباري، برامج النقد الساهر، النشأة والتقنيات، دار العربي للنشر والتوزيع، ط، ص16
- ¹⁸ - أنظر علي البوجديدي، قراءة في كتاب إنشائية السخرية، صعوبات القراءة وموانع الترجمة، ط1، بحوث المؤتمرات معهد تونس للترجمة، 2016، ص14.
- ¹⁹ - غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، ط1، 1968، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ص11
- ²⁰ - المرجع نفسه، ص46
- ²¹ - غالي شكري، أدب المقاومة، ط1، مؤسسة هندواي للنشر والتوزيع، المملكة المتحدة، 2024، ص151

- 22 - غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، ط1، 2013، ص9 .
- 23 - الروائي الجزائري واسيني الأعرج لا أفكر في جائزة نوبل لأني مناصر للقضية الفلسطينية. فلسطينا يومية اخبارية (2025، يونيو 13). تاريخ الزيارة 29 يناير 2026 <https://www.falestinona.com>
- 24 - غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، ص42
- 25 - تصريح معرض الشارقة للكتاب، أحلام مستغانمي تعبر عن تضامنها ومساندتها لفلسطين وضحايا غزة، 2023، جريدة صوت الأحرار عن موقع www.Sawtalahrar.dz تاريخ الزيارة 29 جانفي على 21:38
- 26 - إميل حبيبي كاتب وروائي فلسطيني وصحفي بارز ولد في مدينة حيفا سنة 1921 التي انتقل إليها أبواه بحثا عن الرزق والعلم، لديه تسع أخوة، بعد إنهاء دراسته الثانوية اشتغل في معمل لتكرير البترول ثم في إذاعة القدس، وكان من مؤسسي جريدة الاتحاد الشيوعية، شارك منذ صباه في كفاح شعبه ضد الاحتلال الصهيوني ويعد اليوم من قادة المقاومة الوطنية داخل الأرض المحتلة، ظلت الساحة العربية تشيد بأعماله بسبب وعيها بضرورة المقاومة، ووقوفه ضد الاستيطان منها سداسية الأيام الستة، وهي مجموعة قصصية، ومسرحية بعنوان لكع بن لكع.
- 27 - أميل حبيبي، الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، ط2، دار الجنوب للنشر، تونس، 1990، ص9/8
- 28 - الرواية، ص31.
- 29 - ياسين أحمد فاغور، السخرية في أدب إميل حبيبي، ص7.
- 30 - الرواية، ص36.
- 31 - شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، ص343
- 32 - ياسين أحمد فاغور، المرجع السابق، ص8
- 33 - الرواية، ص50
- 34 - الرواية، ص40
- 35 - شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، ص346
- 36 - جميلة عباوي، البعد التداولي للخطاب الساهر في النكتة الدينية، المفاهيم في العلوم الإنسانية، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس، ج1، 2018، ص414.
- 37 - الرواية، ص55.
- 38 - لينا بنت زاهر بن عبد الله الخصبية، الخطاب الشعري الساهر في الدراسات العربية الحديثة، ص68
- 39 - عمر الاياري، برامج النقد الساهر، النشأة والتقنيات، دار العربي للنشر والتوزيع، ص47
- 40 - المرجع نفسه، ص41
- 41 - الرواية، ص57/58.
- 42 - الرواية، ص66
- 43 - شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، ص51
- 44 - الرواية، ص39
- 45 - عمر الاياري، برامج النقد الساهر، النشأة والتقنيات، ص63
- 46 - المرجع نفسه، ص67.

47 -الرواية، ص36

48 - محمد حسام الدين اسماعيل، ساخرون وثوار، دراسات علاماتية وثقافية في الاعلام العربي، القاهرة، دار العربي للنشر والتوزيع، ص32 عن عمر الايباري، براج النقد السّاحر، النشأة والتقنيات، دار العربي للنشر والتوزيع، ط، ص14

49 - الرواية، ص 40.

هـ- قائمة المصادر والمراجع:

أ-القرآن الكريم

ب. المصادر

1. ابن منظور، لسان العرب، مادة خطب، المجلد الثالث ، بيروت ، دار الجبل، 1988
2. اسكندر نجيب معجم المعاني للترادف والمتوارد والنقيض، ط، 78 ، دار الآفاق العربية، مصر، 2003

ج. المراجع:

1. بوقرة نعمان، الخطاب الأدبي ورهانات التأويل قراءات نصية تداولية حجاجية ، عالم الكتب الحديث، اردب، الأردن، 2012
2. جميلة عباوي، البعد التداولي للخطاب السّاحر في النكتة الدينية، ضم أشغال المؤتمر السوي، المفاهيم في العلوم الإنسانية، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس، مد ج1، 2018،
3. سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، 2001.
4. شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2003
5. علي البوجديدي، قراءة في كتاب إنشائية السخرية، صعوبات القراءة وموانع الترجمة، ط1، بحوث المؤتمرات معهد تونس للترجمة، تونس، 2016
6. عمر الايباري، براج النقد السّاحر، النشأة والتقنيات، ط1، دار العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، 2021
7. غالي شكري، أدب المقاومة، ط1، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، المملكة المتحدة، 2024
8. غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948-1968، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1968،
9. لينا بنت زاهر بن عبد الله الخصبية، الخطاب الشعري السّاحر في الدراسات العربية الحديثة، ط1، الجمعية العمانية للكتاب والأدب، عمان 2023
10. مجموعة من المؤلفين، القصة القصيرة الروسية السّاحرة، ترجمة نزار عيون السود، دار المدى، العراق، 2016.
11. محمد حسام الدين اسماعيل، ساخرون وثوار، دراسات علاماتية وثقافية في الاعلام العربي، القاهرة، دار العربي للنشر والتوزيع، ص32 عن عمر الايباري، براج النقد السّاحر، النشأة والتقنيات، دار العربي للنشر والتوزيع،
12. نزار عبد الله خليل الضمور، الإعلام السّاحر، السخرية والفكاهة في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، ط1، دار حامد، عمان، 2012
13. هنري برجسون، الضحك، ترجمة علي مقلد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1987

14. ياسين أحمد فاغور، السخرية في أدب إميل حبيبي، ط1، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، 1993

مواقع الأنترنت:

- 1- أحلام مستغانمي تعبر عن تضامنها ومساندتها لفلسطين وضحايا غزة، جريدة صوت الأحرار عن موقع نشر 2024،
نوفمبر 11) عن تاريخ الزيارة 29 جانفي على موقع <https://kaindnews.dz> 21:38
- 2- الروائي الجزائري واسيني الأعرج لا أفكر في جائزة نوبل لأنني مناصر للقضية الفلسطينية فلسطيناً، يومية إخبارية
تاريخ الزيارة 29 جانفي على 21:50